مفهوم المثقف و أدواره عند إدوارد سعيد

محمد كعبش ماجستير في العقيدة
قسم العقيدة ومقارنة الأديان
-جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-الجزائر

ملخص:

نريد من خلال هذا المقال تحليل مفهوم المثقف عند واحد من أبرز الفاعلين الثقافيين في النصف الثاني من القرن العشرين، أعني به **إدوارد** سعيد الذي استطاع في محاضرات **ريث** 1993م التي كانت تبث على الإذاعة البريطانية BBC أن يكاشف المثقف بحقيقة نسبيته ووظيفته، إن على مستوى المفهوم أو على مستوى الأدوار المنوطة به في عالم ما بعد الكولونيالية اتجاه مبادئه وشعبه والسلطة المقيمة بينهما وحتى الأعطاب التي تعترض فعله النقدي وعمله التنويري في تمثيل المهمشين وإحراج السلطة. ولا مناص في ذلك – وبمنطق من المقابسة – أن يدخل في حوار فكري مع أبرز الوجوه الفكرية التي بادءته بتحرير مفهوم المثقف من أمثال: جوليان بندا، سارتر، فوكو وأنطونيو غرامشي ليفيد منها دون التماهي معها.

كلمات مفتاحية: المثقف، السلطة، الكولونيالية، الهوية، المنفى، الإمبريالية، الاستشراق.

Resumé :

Nous nous proposons dans cet article d'analyser le concept d'intellectuel dans la pensée d'Edward Saïd. Pour ce faire, nous nous appuyons essentiellement sur les conférences Reith données par Saïd à la BBC en 1993, rassemblées ensuite dans un livre sous le titre *Des intellectuels et du pouvoir*. Dans ces célèbres conférences, Saïd développe une conception éthique et politique du rôle et de la place de l'intellectuel dans les sociétés d'aujourd'hui.

للمثقف شهادة ميلاد، هذا ما تطالعنا به أغلب المراجع الغربية التي عرضت لنشأته، إذ يتعلق الأمر بقضية اجتماعية وسياسية شهيرة عرفت في تاريخ فرنسا الحديث باسم «**قضية درايفوس**» **L'affaire Dreyfus**

.

وقبل الخوض في تحديد ماهية المثقف عند إدوارد سعيد، يحسن بنا أن نشير بشكل سريع إلى هذه القضية، حيث أدانت المحكمة الفرنسية في عام 1894م ضابطا فرنسيا من أصل يهودي يدعى **ألفريد درايفوس** بتهمة التخابر مع ألمانيا العدو التقليدي لفرنسا، ومع أن القضية اعتبرت قضائيا مسألة خيانة وطنية، إلا أن غياب أدلة كافية لإدانته قسمت الرأي العام الفرنسي إلى فريقين: فريق مناصر لحكم المحكمة بإدانته حفاظا على شرعية المؤسسات، وآخر مدافع عن درايفوس باسم الحريات وحقوق الإنسان. كان أكثر أنصار الفريق الأول من اليمين المتطرف، أما الفريق الثاني فمثله جماعة من المفكرين والأدباء يتقدمهم الروائي الفرنسي الشهير **إميل زولا**، حيث أكدت العريضة التي تقدم بها زولا، مع جماعة المثقفين –كما أسماها أنصارها– لرئيس الجمهورية على ضرورة صيانة الديمقراطية بالدعوة إلى إعادة مراجعة الحكم الصادر في حق دريفوس.[1]

ومع أن الكثير من أنصار اليمين قد نظروا إلى هذه التسمية نظرة استهجان واستصغار، إن لم تكن نظرة ريبة، باعتبار أنها تمس بشرف القضاء وبالمصلحة العليا للبلاد، إلا أنها كانت تخفي ما هو أخطر بكثير من ذلك؛ فلأول مرة يحشر من يسمون أنفسهم بالمثقفين أنوفهم فيما يبدو أنه لا يعنيهم، ما يضعهم في مواجهة مباشرة مع السلطة وشرعية حكمها.

هكذا إذن، وبدون مقدمات يجد المثقف نفسه إزاء ميلاد تخفي صوره الظاهرة علاقة بين جيلين كبيرين من الأكاديميين الفرنسيين: جيل النخبة من «قساوسة» الجامعات وتجار اليمين والمبتهلين بحنين الثوابت واللغة والقيم وجيل تشكل وجوده كهامش على الساحة الثقافية، لكن وعيه بقيم العدل والديمقراطية وحق المواطنة جعله يطعن في ثابت من ثوابت الدولة، والمتمثل في شرعية حكمها واستقلاله عن المؤسسة العسكرية الفرنسية.

فما الذي تفيده قضية درايفوس إذن؟

لقد حددت هذه القضية المثقف باعتباره سياسيا بالسلب، فهو لا ينسى قضية **سقراط** في مواجهة السلطة أو قضية **كالاس**[2]، يفعل ذلك تطييبا لضميره و مبادئه دون خوف أو منفعة، فكما يصرح **جون لانيو**، أحد المدافعين عن براءة درايفوس: «إننا ننكر على أنفسنا كل توق إلى الشهرة أو الشعبية، ونمنع على أنفسنا كل طمع في أن نصبح ذوي سلطة أو قوة أو نفوذ؛ إننا نلزم أنفسنا بألا نكذب أبدا مهما كان الموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه، و ألا نخلق أو نساند بأقوالنا وكتاباتنا أوهاما حول أمور هذا العالم المتقلبة»[3].

إن هذه التوطئة للموضوع من خلال التذكير بقضية درايفوس يضعنا في مواجهة مباشرة مع تحولات المفهوم وتمظهراته لأحد أهم الفاعلين الثقافيين في النصف الثاني من القرن المنصرم، أعني به المثقف الفلسطيني الكبير **إدوارد سعيد**.

ففي تقاطعات التجربة والكتابة يبدو أن النصوص التي كتبها سعيد كانت وفية إلى حد ليس بالقليل لهاجس التجربة الشخصية؛ فمفردات من قبيل المنفى، الهامش، المقاومة، الكولونيالية، الاغتراب الثقافي ...إلخ تجد لها تمثيلا سرديا وحضورا كاشفا داخل المشروع الفكري الذي كتبه.

فمع كتابه **الاستشراق**، الذي يعد بلا شك أشهر ما كتبه، أصبح كل عمل ثقافي قريب بصورة أو بأخرى مما يسميه هو تمثيلا مجافيا للحقيقة وتوجيها مسبقا ومبسترا لحقيقة يسلبها الموقع الذي تشغله حق التعبير عن نفسها وإسماع صوتها في مقابل تمثيل كاسح تتبناه سلطة مسكونة بصفات المركز والقوة والحضور والتثبيت.

إن قراءة ثانية لمشروع الاستشراق تكشف هذا المنظور التراتبي للعالم والقيم، حيث يمتزج العلم بالعنصرية والمعرفة بالقوة، ما يستدعي حسب سعيد موجة وعي مضاد تعيد الاعتبار للهامش المفعول به أو فيه أو عليه، وليكن هذا الدور بديهيا لدى مثقف غير استشراقي يقوم بنصرة الضعفاء وتمثيل العاجزين وإسماع صوت المهمشين.

وبعيدا عن الترهلات التي يمكن أن ينزلق إليها فعل الإنشاء الكتابي، يسعفنا سعيد بالمفهوم والأدوار المنوطة بهذا النوع من المثقف و الأعطاب التي تعترض فعله النقدي كمقاوم للسلطة ومدافع عن الحقيقة التي يراها في جانب المقهورين والفلسطينيين منهم بدرجة أخص.

ففي سلسلة محاضرات "**ريث**" التي ألقاها عبر إذاعة BBC البريطانية عام 1993م، يكشف سعيد، بكثير من الوضوح والجرأة والتمثيل، كل الأدوار التي يمكن أن تعكس صورة من الصور التي تظهرها إحدى ترجمات عنوان الكتاب، أي صور المثقف أو تمثيلاته أو الآلهة التي تفشل دائما. فمن هو المثقف عند إدوارد سعيد؟ وماهي الأدوار المنوطة به في عالم تحكمه القوة والسلطة؟ وهل ثمة حواجز تحول بين المثقف ووظيفته في مقارعة السلطة وتمثيل العاجزين؟ وهل في المنفى مزية في التأسيس لدور المثقف ونضاله؟

مفهوم المثقف عند ادوارد سعيد:

بعد أن قرأ سعيد التعريفات الكلاسيكية (*) عن المثقف والأدوار التي يمكن أن يضطلع بها، أخذ بشرعية الاستثمار في إيجاد مثقف بديل ينوء بحمل الإشكالات التي شكلت جزءا هاما من تجربته الشخصية، يتعلق الأمر بموقف المثقف من الاستشراق والسلطة والإمبريالية وممارسة القوة وتمثيل الآخر، عبر سلبه ملكة التعبير عن نفسه

وبمصادرة حقه في الكلام، فهو يبحث عن مثقف أو عن استراتيجية بديلة تتيح لهذا المثقف موقعا متميزا في عالم أكثر وحشية واستغلالا، وصفة تمثله والأشخاص الذين ينوبهم ويتكلم باسمهم والطبقة الاجتماعية التي يعبر عنها. ومن أجل ذلك، ميز سعيد بين المثقف والمتعلم والمفكر والمربي والأكاديمي والسياسي والخبير ورجل العلم.

فالمثقف عند سعيد ليس ذلك الذي أهلته خبرته العلمية وكفاءته السياسية لاعتلاء المناصب العليا والحلم بالمشاركة في صنع القرارات المصيرية للشعب، و لا هو ذلك القائد المفوه الذي يلهب مشاعر الشعب لأغراض الهيمنة و النفوذ على خلاف من ذلك يختصر سعيد ماهية المثقف في كونه " الشخص الملتزم و الواعي اجتماعيا بحيث يكون بمقدوره رؤية المجتمع و الوقوف على مشاكله و خصائصه و ملامحه و ما يتبع ذلك من دور اجتماعي فاعل من المفروض أن يقوم بتصحيح مسارات مجتمعية خاطئة "[4].

وعلى أساس من ذلك يتوزع المثقفون في نص سعيد إلى فئتين رئيستين هما: المثقف **المحترف** والمثقف **الهاوي** وهذه مقابسة أقرب إلى نص **غرامشي** منها إلى أي تقسيم آخر، ففي كتابه **صور المثقف** يعقد سعيد فصلا بعنوان «محترفون وهواة» يواجه فيه سعيد المثقف المهني أو المحترف بآخر يندرج في حقل الهواة. فمن هو المحترف ومن هو الهاوي عند سعيد؟

1 – المثقف المحترف: يقصد به سعيد المثقف المتخصص أو الخبير، وهي كلها أوصاف لمثقف واحد يراه سعيد مؤتلفا مع موضوعه للاختصاص مكتف بذاته:"قوامه طقس كهنوتي تمارسه قلة مختصة تتبادل المعارف في قاعات أكاديمية مغلقة، بل إن هذه النخبة المتخصصة التي تتداول لغة معقدة خاصة بها تفصل بين حقلها المعرفي ومعارف مجاورة "ملوثة" وبين قضاياها المختصة وفضول الجمهور الذي لا اختصاص له"[5]. فالمثقف المحترف عند سعيد هو مثقف صنائعي يجيد صنعته باحترافية بالغة وبلغة أكثر تخصصا ودقة؛ وهو إذ يفعل ذلك فإنه يستسلم للممارسة الطقسية لمؤسسة عمله وفق التصور المنضبط والرطانة المعهودة، لتخلق منه في الأخير خبيرا معترفا به في حقل تخصصه وتمده بخبرة الأكاديمي المختص بسلطة قابلة للتداول والتسليع.

يرى سعيد أن ثمة في التخصص ما يعيق عمل المثقف ويحجبه عن رسالته، ولنا أن نعدد معه هنات الاحتراف وخطرها على المثقف فيما يلي:

أ – كلما أوغل المثقف في حقل تخصصه وتوسع فيه كلما ضاقت رؤيته الإدراكية في مجالات المعرفة الأخرى، وما يعنيه سعيد بالاحترافية "هو اعتبار وظيفتك كمثقف وكأنها عمل تؤديه كسبا للرزق بين التاسعة والخامسة، عين لك على ساعة الجدار بينما الأخرى حولاء من النظر فيما يعتبر سلوكا احترافيا سليما لا تحدث هزات بلا داع

ولا تشرد إلى أبعد من الأنماط والحدود المقبولة، بل تهيئ نفسك لتكون رائجا ولائقا قبل كل شيء، ومن ثم تصبح غير مثير للجدل وغير معني بالسياسة و موضوعيا "[6].

يدلل سعيد على هذا النوع من "الضغط الفعال العمومي" الذي يمارسه الاختصاص بحقل تخصصه الأدبي فالتخصص في ميدان الفن غالبا ما يكسب المثقف شكلية تقنية تبعده تدريجيا عن رؤية المعرفة والفن كخيار وقرار أو كالتزام وانحياز وتجره إلى منهجية مجردة تغلق الباب في وجه التاريخ وتسلبه حس الإثارة والاستكشاف وترقيه في مهاوي الوداعة والرضى عما يدعيه القادة المنظرون في هذا الحقل، وأخيرا وليس آخرا، فمتى تكون خبيرا، "يجب أن تحصل على الإجازة من السلطات المختصة التي تعلمك التحدث باللغة المناسبة والاستشهاد بالمراجع المناسبة والعمل في المنطقة المحددة المناسبة، ويصح هذا القول عندما يتحتم اتخاذ قرار حاسم بشأن مجالات في المعرفة تكون حساسة أو مربحة أو الاثنين معا " [7].

ب– الخبرة لا تعني المعرفة، فإذا كانت الأولى تنغلق في الاختصاص فإن الثانية تتحدد في نقد الاختصاص والمساءلة الدنيوية للواقع والتاريخ، بل إن الخبرة تشكل أكثر الأغلفة كثافة عن رؤية الحقائق السياسية والمجتمعية والإصغاء المستديم و الواقعي لصوت العصر؛ ويجد سعيد تمثيل ذلك في مثقف أتيح له أن يمزق حجاب تخصصه كلساني لينتقل إلى الاشتغال على ما هو يومي وسياسي، ويقصد به نعوم تشومسكي، ففي محاجات الأخير ضد حرب الفيتنام استطاع أن يكشف زيف مدرسة "الصواب السياسي"، الشعار الذي تبنته الإدارة الأمريكية بمعية نخبة كبيرة من الأكاديميين والمتخصصين في حقل الدراسات السياسية والاستراتيجية والمدججين بشتى أنواع الشهادات.

استطاع تشومسكي أن يتخطى ضمير المعظم "**النحن**" الذي استعمل وقتها مبتدءا لخبر النصرة أو الدفاع عن الحرية أو إفشالا لانقلاب موسكو وبكين في الفيتنام، كاشفا عن الحقيقة المبطنة التي تتحكم في السلوك الأمريكي إزاء القضايا الخارجية، وهذا كله في مقابل من يسميهم سعيد بـ"الخبراء المجازين" و"تقنيو القاعات" و "خبراء الكومبيوتر" الذين لم ينكروا عليه تحليله للسياسة الأمريكية بقدر ما أنكروا عليه افتقاره لشهادة تؤهله كخبير لشرح هذه السياسة في الخارج "[8].

ج – لا يهم إذا ما كان انجذاب المحترف للسلطة سببا من أسباب تخصصه أم نتيجة له، المؤكد أن الضغط الأكثر خطورة هو الانجراف المحتوم لمعتنقي التخصص نحو السلطة وامتيازاتها والعمل على خدمتها وإرضائها، ويقرأ سعيد هذه الهجرة نحو السلطة ببعض من التحفظ فيما كتبه اليساري الأمريكي **راسل جاكوبي** أواخر حكم **ريغان** في

كتابه **آخر المثقفين**، قائلا: "إن المثقف غير الأكاديمي قد اختفى تماما في الولايات المتحدة ولم يترك في مكانه إلا عصبة من أساتذة الجامعات الجبناء المثقلين بالرطانة والذين لا يبدي أحد في المجتمع اهتماما كبيرا بهم " [9]، كما ينقل عنه سعيد في كتاب آخر له إدانته الشديدة للمثقفين الذين يحسبون حسبه لكل شيء حسابا ومن المحال فهمهم، والذين يستأجرون اللجان، وهم حريصون على إرضاء جميع أرباب العمل والوكالات[10].

والموقف نفسه يبديه تشومسكي في كتابه **السلطة الأمريكية والمثقفون الجدد**، حيث يصف أغلب الأساتذة بالخيانة لأنهم يخدمون السلطة الأمريكية، وأنهم لا يمكن أن يتجنبوا الموقف النخبوي في سعيهم لإدارة المجتمع والسيطرة عليه.

في كتابه **صور المثقف**، كتب سعيد قائلا: "إن أحد النشاطات الفكرية الرئيسية في القرن العشرين هو استجواب السلطة إن لم يكن تقويضها. (...) إن نقد الموضوعية والسلطة أدى حقا خدمة إيجابية بتأكيده كيف تركب الكائنات البشرية حقائقها في العالم الدنيوي "[11]. إن علامة "المعرفة المخادعة" لهذا النوع من المثقف السلطوي تجد تمثيلها في شخص **برنارد لويس** الذي يعتبره سعيد أعتى المنتمين إلى طقوس الاختصاص المستبد والحليف التقليدي لسلطة المال ولوبي السياسة، حيث يصفه سعيد في كتابه **تعقيبات على الاستشراق** بقوله:" إنه يبدأ من تشويه الحقيقة وإقامة مناظرات زائفة ثم الغمز من قناة هذا وذاك، وهي الطرائق التي يضيف إليها ذلك المظهر الخادع من السلطة القادرة الهادئة التي يفترض أنها الطريقة اللائقة بكلام الباحث العالم. (...) وحجج لويس تقدم بوصفها نابعة من حياد الباحث غير المسيس، في حين أنه تحول من جهة ثانية إلى سلطة مسخرة لصالح الحملات الصليبية المناهضة للإسلام والمناهضة للعرب ولصالح الصهيونية "[12].

على أن سعيد لا يتهم المثقف بالخيانة والجشع لمجرد أنه يكسب عيشه من العمل داخل مصالح وأجهزة السلطة ويعتبره اتهاما فظا ولا معنى له نهائيا خلافا لجاكوبي أو **ريجيس دوبريه** صاحب كتاب **معلمون وكتاب ومشاهير: مثقفو فرنسا الحديثة**، حيث يرى أن المثقفين الفرنسيين بعدما كانوا لاجئين **بالسوربون** من الكنيسة و البونابرتية بين عامي 1880 و1930م قد تحولوا إلى لاجئين لدى وسائل الإعلام الجماهيري بعد نقاهة ظرفية بين السنتين أتيح فيها للمثقف الفرنسي أمثال سارتر، كامو، دي بوفوار، مالرو ...الخ الوقوف بين الوقار الكنسي السابق و الضجيج الإعلامي اللاحق عليه[13].

ليست خيانة لدى سعيد لكنها تعاط واع مع تعديات العملية العصرية، لا بتجاهلها أو نكران دورها بل بتمثيل مفارق للأنانية الضيقة والأوسمة الجوفاء بما يسميه هو بنزعة الهواية، البديل الأمثل للمثقف المحترف. فمن هو المثقف الهاوي؟

2 – المثقف الهاوي:

ما الذي يجده سعيد رنانا في صوت المثقف الهاوي وأكثر غنائية وتبجيلا؟ إنها نزعة الهواية ذاتها أكثر من أي شيء آخر، والهواية هي التي تجعل من المثقف "عضوا عاقلا ومعنيا في مجتمع ما يخوله إثارة قضايا أخلاقية حتى في صميم أكثر النشاطات تقنية واحترافية لأنها تتعلق ببلاده و قوتها وأسلوب تفاعلها مع مواطنيها وأيضا مع مجتمعات أخرى "[14]. فالهاوي بالنسبة لسعيد هو شخص استطاع أن يتحرر من أقنوم التخصص وامتيازات السلطة، إنه لا يتخذ من المعرفة واسطة للعيش، بل يتخذها حاكما أخلاقيا على عمله ونشاطه داخل مجتمع يعتبر نفسه معنيا بصفة أو بأخرى بكل ما يعتمل فيه.

فشرط الهواية هو هذه المسافة التي يتخذها المثقف إزاء السلطة وإزاء التخصص، وهي التي تتيح للمثقف نسبة من الاستقلال الفكري يبصره بأدواره، كالتمرد والشجاعة والقبول بالمخاطرة والزهد فيما هو عائق عن قول الحقيقة. وواقع الأمر أن سعيد "ينقض الاحترافية ببدائل أخلاقية المراجع، مستبدلا العلم بالسلطة، والمسؤولية بالاختصاص، والجمهور بالأكاديمية، والحرية بالامتثال، والتجدد النقدي بكسل عادات الاحتراف"[15].

كل ذلك يجعل من المثقف الهاوي تركة مجتمعية تصنع أدوارها لا مما هو شخصي أو سلطوي، بل بما هو أخلاقي و إنساني، حيث تحتل لفظة "الجمهور" موقعا دالا في مشروعه الفكري كمثقف، إنه أشبه بجدال النص والقارئ لا الدال و المدلول، فلا اعتباط فيما يكونه المثقف من رؤى ويجهر به من حقائق، فهناك دائما جمهور يمارس بدوره هواية الإصغاء ويتشارك المثقف همومه وتطلعاته لكشف الحقيقة التي ينتظرها وسلطة يجد الجمهور في مثقفه بديلا عن طاعتها والانمحاء في كليتها، وذلك لا يكون إلا بالتورط في شؤون السياسة وفضح ألاعيبها. ولهذا يدعو سعيد المثقف الهاوي إلى أن يمارس هذا النوع من النقد السياسي، وألا يستهلك ذاته في قراءة الأدب الفيكتوري ورطانة النظريات النقدية المعهودة.

كتب سعيد مرة عن آفة الاختصاص وفضيلة الهواية: "إن تأليه **الاختصاص** والاحتراف مثلا قد **أدى** إلى **تقييد أفق رؤيتنا** إلى حد كبير، **مما أدى** إلى **بروز عقيدة** إيجابية تدعو إلى **عدم التدخل فيما بين الميادين والحقول،** وهذه العقيدة تقول **إن أفضل الحلول هو ترك الجمهور جاهلا وترك أكثر** المسائل حسما فيما يخص الوجود

الإنساني للخبراء والمختصين الذين لا يتكلمون إلا في اختصاصهم، لهم هم أن يديروا البلاد أما نحن فسنطنب في شرح ووردزوورث وشليجل"[16].

لكن المثقف الملتزم لا يصبح هاويا بمجرد تحرره من السلطة أو فكرة الإطار كما قد يشير إليه ظاهر الكلام، فالأمر أكبر من أن ينضبط في مقررات جاهزة يفضي الالتزام بها إلى تحديد ماهيته كمثقف، بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى "اعتباره شخصية يصعب التكهن بما سوف تقوم به في الحياة العامة ويستحيل تلخيصها في شعار محدد أو في اتجاه حزبي معتمد أو مذهب فكري جامد "[17]. ومع ذلك يأخذ سعيد على عاتقه إبراز الملامح الكبرى التي تشكل برنامج عمل المثقف فيما يلي:

أ – مقاومة السلطة: " يجب دائما على المرء أن يبدأ مقاومته من وطنه ضد السلطة كمواطن يمكنه التأثير "[18].

تختصر هذه المقولة لسعيد جزءا هاما في برنامج عمل المثقف؛ فبالنسبة للأخير، وقبل هذا وذاك هو مطالب بالإخلاص لمبادئه والتمسك بالمنهج والوفاء للحقيقة والتصدي لواقع الشقاء والظلم السلطوي ومقاومة كل اشكال التعصب والعنف و اللا تسامح فمهمته الأساسية ليست في التجافي عن جمهوره هناك وقيادته عن بعد بتشكيل وعي مفارق، بل بالانشقاق على السلطة عبر التورط في أحابيل واقعها بالتحريض على الفعل السياسي والمقاومة المنظمة والنقد البناء بعيدا عن الشوفينية والشعبوية التي ترده إليها انكسارات طموحه أمام تخلف الجمهور أو شعبويته أو سطوة السلطة وسياطها، وإنما بالإشهار للبديل بطريقة عقلانية ممنهجة تفضي في الأخير إلى تجميع كل الطاقات لقلب السلطة وإعادة تشكيلها.

إنها دعوة جريئة إلى خيانة الخيانة التي اقترفها أدعياء الثقافة وكهنة السلطة و المديري ظهورهم لقضايا أمتهم وصوت ضميرهم؛ فالاعتبار أخلاقي بالأساس لا يقتصر على تفهم حركة التاريخ بقدر تفهم التدخل السلطوي في توجيه هذه الحركة فلطالما استجابت هذه الحركة لشهوة السلطة؛ وهذا يحتم على المثقف الزهد في ذاته لصالح جمهوره عبر استجواب السلطة ونقدها والسعي الدءوب لتوليد أسلوب غير تقليدي في رؤية الحياة والحرص على إنجاح انعتاق جماعي يمر حتما بمثاله كشخص واع بمخاطر الانشقاق عن السلطة، بل ومقاومتها والتهكم بوعدها ووعيدها، لذلك اعتبر سعيد أن دور المثقف عموما "جدلي ومتناقض، وهو أن يكشف ويوضح الصراع (...) وأن يقهر الصمت المفروض بالقوة والهدوء المطيع للسلطة الخفية أينما كانت وكلما كان ذلك ممكنا "[19].

فعمل المثقف يقتضي إذن تقفي آثار الظلم السلطوي في مضانه المختلفة ومتابعة تطبيقات هذه القوة والظلم في شتى المجالات من السياسة إلى الاقتصاد إلى التربية وطرق توظيف المقدس والتوزيع المجحف للثروة وتبذير الفرص مرورا بتعرية الشعارات الفضفاضة والأحلام الزائفة التي تخفي تحتها واقع البؤس المرير؛ كل ذلك يجعل منه ناقدا

حضوريا تشكل وظيفته عملا يوميا أو دنيويا لا قداسة له إلا فيما يتعامل معه على أنه مؤنسن ومتحرر من العناية الإلهية التي تجد لدى حفنة من المتخصصين مواضع تبريرها للظروف الاجتماعية القاسية حفاظا على موقعهم من السلطة وموقع السلطة منهم.

إنها أشبه بالخصومة الدائمة مدى الحياة مع السلطة والقديم والزائف والنفعي والمقدس، فليس عمل المثقف في الأخير إلا نزاعا مع جميع الأوصياء على الرؤيا المقدسة أو النص المقدس الذين لا يطيق ظلمهم أي اختلاف في الرأي وبالتأكيد أي تنوع، ولذلك تعمل السلطة عبر أجهزتها للإعلام والجامعات وإدارتها العسكرية ودوائر قرارها السياسي على تدجين أفرادها و احتوائهم عبر مستويين: على المستوى الفكري، بنفي الحقيقة وحجبها، وعلى المستوى العملي بنفي العدالة الحقة لعدالة زائفة وظرفية [21]؛ وهو ما يحتم على المثقف العمل على كشفه وتقصي آثاره، مما يجعل هذا المثقف حاضرا وملموسا وواقعيا خلافا لمثقف بندا، ويجد سعيد تمثيل ذلك في شخص تشومسكي، الذي استطاع بكثير من الرياضة النقدية أن يتحرر من طوطمين: طوطم تخصصه في حقل الدراسات الأدبية واللسانية وطوطم المداهنة السلطوية والنفاق السياسي، ليصبح أبرز شاهد وكشاف لألاعيب الولايات المتحدة لا في الداخل فقط، بل في العالم كله وفي الشرق الأوسط بشكل خاص.

أما المثقف الثاني، فيصنعه سعيد نفسه من خلال حضوره السياسي والميداني الكاسح إن في الداخل الفلسطيني أو على المستوى الأممي، وبيان ذلك دعوته المثقف إلى فضح الاستشراق السافر الذي يمارسه عصبة من المثقفين السلطويين بغرض الهيمنة على الشرق وإخصائه وتطويعه لرغبة الغرب، وهنا يصبح سعيد ضمير الشرق ومثقفه الهاوي بامتياز.

3 – ضغط الهوية والانتماء القومي:

طرح سعيد سؤالا جوهريا حول علاقة المثقف بأناه الجمعي وانتمائه القومي متسائلا: هل تفرض حقيقة الانتماء القومي على المثقف الفرد أن يلتزم بالحالة النفسية العامة للتضامن أو الولاء الأزلي أو الوطنية القومية؟ أم ترانا نستطيع إقامة حجة أرجح لاتخاذ المثقف موقف المنشق الخارج على التشكيلة الجماعية؟

اعتبر سعيد أن معطى الهوية ليس طارئا أو إشكاليا طالما كان المثقف فردا داخل الجماعة، لا خارجها: "مشكلة الولاء محدقة دائما بالمثقف وتتحداه بدون رحمة، وكلنا بلا استثناء منتمون إلى جماعة قومية أو دينية أو عرقية ما، فما من أحد مهما كان مقدار الإصرار على عكس ذلك يعلو فوق الروابط العضوية التي تشد المرء إلى العائلة والجماعة وبالتأكيد إلى الجنسية "[22]. وهو بذلك ينتقد موقف جوليان بندا الذي اعتبر أن المثقف ينبغي أن يعيش في فضاء كوني لا تحده تمايزات اللغة والعرق والجغرافيا؛ على أن القيمة التي قصد إليها بندا هي أن

المثقف الأوربي وحده من يحمل هذا اللقب وشرف اللا انتماء، بخلاف غيره الذين لا يشكل جوهر وجودهم علامة على اسم المثقف، لكن سعيد ينعي على بندا هذا الحجر لاسم المثقف على الأوربي دون سواه بدعوى السبق الأوربي في ميدان المعرفة والإنارة الفكرية، إذ "أن تفكك الإمبراطوريات الاستعمارية العظمى بعد الحرب العالمية الثانية قلل من قدرة أوربا على الإشعاع فكريا وثقافيا لإنارة ما كان يسمى بالمناطق المظلمة على الأرض (...) بأن أصبحت الأمم والتقاليد غير الأوربية جديرة فيما يبدو بالاهتمام الجاد اليوم "[23].

إن فكرة الغيرية هي التي أفرزت أشكال تعاطي المثقف مع محيطه وعالمه على نحو يتيح له إما التماهي مع عادات مجتمعه وأنظمته الرمزية التي تغسل وعيه وتغويه بالقبول السلبي لأفكار لم يختبر صحتها، بل تجعل منه بيدقا ديماغوجيا لا يزيد على تلميع الشعارات والمتاجرة بالرموز، وإما أن يعي خطر محيطه على رسالته فيأخذ مسافة تاركا خلفه مساحة للذكرى والنقد والمراجعة حتى لا يستلب دوره في مجرد الابتهال والتهليل، ويفقده القدرة على ممارسة دوره كمنور للمجتمع.

يضرب سعيد مثالا لهذا النوع من الانتهاك الهووي لرسالة المثقف في ميدان الصحافة بجريدة نيويورك تايمز المدججة بنخبة واسعة من المثقفين المحترفين، فما يلفت النظر حسبه أن الخط الافتتاحي لهذه الجريدة كان يعبر بصدق عن هذا النزوع القومي لكل ما هو أممي وأمريكي، فالضمير" نحن" و" نا " الذي كانت تستعمله الصحيفة في حرب الفيتنام قد استولى و دمج الشعور الجمعي في حرب اعتبرت حمقاء وجائرة على حد سواء، وقد يكون ما كتبه ماثيو أرنولد في كتابه الثقافة والفوضى (1869م) مشيرا إلى هذا النوع من التوظيف لدور المثقف في تقديم المساعدة للمجتمع على تفعيل إحساسه بروابط الهوية والانتماء والقومية المشتركة [24] شيئ رفضه بندا واعتقد أن تسابيح الوعظ والولاء التي يتبناها المثقف الفرنسي لكل ما يشكل عظمة وتفوقا في الأدب واللغة الفرنسيين هو في حد ذاته تعمية له عن دوره الكوني كمثقف ولأبناء جيله عن رؤية حقائق واقعهم المأساوي.

يستطرد سعيد في بيان هذا التأثير الذي يمارسه الانتماء والهوية على المثقف بما وقع فيه فرويد في كتابه فرويد وغير الأوربيين [25] وعلاقته بديانته اليهودية وبالآخر والأنا الممركزة في الغرب الثقافي والحضاري لا الشرق الديني اللاهوتي، حيث يفترض فرويد أن اليهود يشكلون جزءا من سياق الحضارة الغربية المتفوقة، وهذا طبعا تحت ما يراه سعيد ضغط النازية وخطر الانشقاق والترحل نحو الذات وحالة الرعب من البوح الذي انعكس في نظريته للتحليل النفسي المبنية أساسا على الوسواس والهواجس العصابية الخاصة بقلق الهوية، حيث يفتعل فرويد في كتابه

موسى والتوحيد فكرة نقاء الهوية اليهودية التي تعود حسبه إلى الشعوب المتوسطية وليس للعرق الآسيوي، وهو مخطط ساعدت حملات معاداة السامية في إكسابه مزيدا من التعاطف في إقامة وطن قومي بفلسطين [26].

إن ما تفعله الهوية بالمثقف هو تعليمه كيف يفكر من جانب واحد مهملا كل الوحدات الداخلية التي تشكل هذا الكل الذي يتم اختزاله عسفا في اسم الهوية، ليس ثمة هوية واحدة بل هناك دائما هويات مختلفة وليس أدل على ذلك فيما يظهره التعامل مع الشعوب التي تدين بالإسلام تحت هوية واحدة يتم شخصنتها في الدين كمقوم رئيس في احتواء كل التمايزات والهويات وحتى اللغات والأعراق التي تحت مظلة هذا الدين، وهو تسييس للقضية في آخر المطاف.

إن عمل المثقف هو كشف هذا اللبس المفهومي بين الإسلام كدين وثقافة بعيدا عن السياق الأحادي في فهم الإسلام، وعلى الرغم من كون الإسلام يشكل جوهر الإيمان والهوية لأغلبية الناس، "فمن غير الإلزامي على المثقف إطلاقا الاشتراك في الجوقات التي تمتدح الفهم الأحادي للإسلام، وإنما يتحتم عليه أن يقدم في الدرجة الأولى تفسيرا للإسلام يشدد على طبيعته التركيبية وغير التقليدية وهل هو إسلام الحكام كما يسال أدونيس الشاعر والمثقف السوري أم إسلام الشعراء المنشقين والفرق الخارجة عليه؟ وعلى المثقف في المقام الثاني أن يطالب السلطات الإسلامية بمواجهة تحديات التعامل مع الأقليات غير الإسلامية وحقوق النساء والعصرية نفسها بحرص إنساني وإعادة تقييم صادقة، لا بترانيم رتيبة دوغمائية أو شعوبية وجوهر هذا الأمر للمثقف في الإسلام هو إحياء الاجتهاد أو التفسير الشخصي وليس التنازل كالنجاح لمصلحة العلماء ذوي الطموحات السياسية أو الدهماويين الساحرين للجماهير "[27].

نقلت هذا النص – على طوله – للوقوف على حالة التشرد التي يعانيها المثقف العربي اليوم، مثقف ما بعد الكولونيالية وميلاد الدولة الحديثة بمفرزاتها الحزبية القومية منها والعلمانية ثم الإسلامية كبديل أخير لإفلاس شعارات الوحدة العربية أو ممارسة التحديث انطلاقا من كونية الشعارات الغربية المائزة لإدارة الدنيا عن ممارسة الدين، لذلك ينبغي للمثقف، حسب سعيد، أن لا ينجر وراء القوالب الجاهزة والشعارات الحماسية والأفكار الاختزالية، مثل شعار "الإسلام هو الحل"، بل عليه أن يحقق انتماءه وولاءه انطلاقا من جوهر عقيدته النقدية التي تلزمه بأن لا يغض الطرف عن وظيفته التنويرية؛ فلا ينبغي للتضامن أن يسبق النقد، وليس لوحدة الهوية ما يمنعه من كشف جانبها المتشكل والمصنوع بل والمخترع أحيانا، فهي ليست كيانا طبيعيا أو هبة من الله، كل ما هنالك أن ثمة عملا دءوبا ومستمرا نحو صياغة متجددة لها داخل الجغرافيا وليس خارج التاريخ، وهذا لا يطعن بحال في مسألة ولاء المثقف لأمته خصوصا في النوازل والأزمات فثمة دائما قيمة لا تقدر بثمن لما يفعله المثقف

ولاء لجماعته ووطنه في أوقات الأزمة "فعندما يتعلق الأمر بالهوية السياسية عندما تكون عرضة للتهديد فإن الثقافة تمثل أداة للمقاومة في مواجهة محاولات الطمس والإقصاء"[28].

ولا يجوز لهذا النوع من الولاء البناء أن يصل إلى درجة تخدير الحس النقدي وإغفال انتقاد السلطة بإفشاء معايبها والتشهير بقادتها، وفي خضم معمعة البقاء عليه ألا يسهو أو يتكاسل عن قضية الحريات والحقوق وتقديم البدائل المناسبة أسوة بالمثقفين العظام أمثال: طاغور شاعر الهند ونظيره الكوبي خوسي مارتي أو بيكاسو أو نيرودا دون أن ننسى فرانز فانون الذي أخلص في ولائه لحرب التحرير الجزائرية دون أن ينسى وظيفته كمثقف.

ينقل عنه سعيد قوله: "لا يكفي الانسياق وراء الجوقة التي تعلن رضاها عن الوطنية المعادية للاستعمار ممثلة في الحزب والقيادة، فمسألة الهدف تبرز دائما في خضم المعمعة وتقضي بتحليل الخيارات المتاحة، ترانا نحارب من أجل تحرير أنفسنا من الاستعمار فحسب وهو هدف لازم، أم ترانا نفكر أيضا فيما عسانا نفعله بعد أن يرحل عن أرضنا آخر شرطي أبيض "[29].

المثقف والمنفى:

بمنطق المكاشفة والإصغاء لصوت التجربة والتاريخ، هناك علاقة سببية ولكنها غير مطردة ينفتح عليها نص سعيد في تقاطع تجربة المثقف بواقعة المنفى، فمن ذاته المترحلة مرارا من القدس إلى القاهرة إلى بلدة ظهور الشوير بلبنان ومقاما بالولايات المتحدة الأمريكية وانتهاء بدوره كمثقف، خلص سعيد إلى كل التجارب التي يشكل وجودها كمنفى جوهر فعلها الثقافي، يتعلق الأمر برفاق التجربة من أمثال تيودور أدورنو وإيريك أورباخ وجوزيف كونراد، وغيرهم. فالنظر فيما بعد السماء الأخيرة (1986م) وخارج المكان (1999م) يكشف عن هذا التلاقح الخلاق بين تجربة المنفى وفعل المثقف بما يظهر الجانب المزيد في تجربة المثقف من خارج المكان، وكيف يكون الترحل الدائم والقسري أو الاختياري ليس عنوانا لتغيير الزقاق فحسب، وإنما ميلادا قيصريا وتجربة جديدة لكسر كل القوالب الجامدة والدائمة والقارة التي يعبر عنها مكان الإقامة والتشكل المستمر في قلب الممارسة النقدية.

ومع أن التفكير في المنفى شيء جذاب، "لكن معايشته أمر فظيع للغاية "[30]، كما يقول سعيد؛ فهناك دائما وربما يوميا شتات لا متناه لملايين البشر الذين يقتلعون من محيطهم الجغرافي والأسري والتاريخي، حتى وإن بدا المنفى في ظاهره أمرا دنيويا محضا. فما الذي يجعل منفى المثقف مفارقا ومخترقا لهذا الإطار الدنيوي والتاريخي وينفذه من ظاهر بؤسه الأرضي إلى باطنه الميتافيزيقي؟

يرى سعيد أن المنفى بمعناه الميتافيزيقي "يمثل دربا من القلق والحركة وعدم الاستقرار والتسبب في عدم استقرار الآخرين، وهو لا يستطيع العودة إلى الاطمئنان القديم الذي يصاحب العيش في الوطن، ولا يستطيع ويا للأسف أن يصل وصولا كاملا، أي أن يتوحد مع موطنه أو حاله الجديد"[31] ليس ذلك فحسب، انه يتأكد في أسلوب المثقف ويبدو أكثر وضوحا سواء عند سعيد أو عند الذين قاسمهم تجربة المنفى، ولنا أن نعدد مسرات المنفى على المثقف والتكيفات الجديدة للعيش وما تتيحه من متعة وحيوية تنعكس في عمل المثقف وأسلوبه، لعل أظهر تلك المسرات تكمن في متعة المراجعة والنقد والحساسية المفرطة اتجاه التسليم بالمقولات الجاهزة والحقائق الموروثة، إذ أن المثقف معني أساسا بالمعرفة والحرية، لكن هاتين تكتسبان معنى لا كتعبيرين تجريديين (...)، وإنما كتجربتين معاشتين، إن المثقف لأشبه بإنسان نجا من سفينة غارقة يتعلم كيف يعيش بمعنى ما مع الأرض لا عليها "[32] ذلك أن تجربة المثقف المنفي تمثل برزخا بين عالمين، الوطن الأم والوطن الجديد، تجربة قديمة وأخرى متجددة؛ فبمنطق من المقايسة والجدل يفضي الأخذ بالتجربتين رأيا ثالثا قد يكون أكثر شمولية واتزانا.

من الآثار التي يتركها المنفى على المثقف، أنه يزرع فيه نزوعا نحو رؤية الأمور "ليس فقط كما هي عليه وإنما كيف تطورت لتصبح على تلك الحالة، وتميل إلى تفحص الأوضاع وكأنها ممكنة الحدوث لا محتومة، واعتبارها النتيجة الناجمة عن سلسلة من الخيارات التاريخية التي حددها رجال ونساء ووقائع مجتمع حددها بشر لا كأوضاع فطرية أومن نعم الله و بالتالي ثابتة ودائمة لا تنقض"[33].

وفي هذا السياق، اكتشف سعيد الفيلسوف الايطالي جامبتيستا فيكو الذي يعتبره أحد أبطاله، فجزء كبير من تجربة هذا الفيلسوف، أو لنقل وحشته مر بها كأستاذ جامعي مغمور في نابولي لا يكاد يؤمن لقمة عيشه، إضافة لخصومته الدائمة مع الكنيسة في فهمه لحركة التاريخ؛ فالله ليس هو المدبر اليومي والمحرك الدائم لسير الأحداث، بل إن بحثه انصب على إيجاد بدائل دنيوية وفاعلين جددا، ووجدها في أسباب وضيعة تشكلها جملة الرجال والنساء على السواء، وهذا يستوجب حسبه احترام المجتمع لا تبجيله، لأن دنيوية التاريخ تعلمك دائما أن المجتمع أو المؤسسة أو القرارات الكبيرة والحاسمة قد تطورت عن بدايات محددة وطفولية وستنتهي يوما كما بدأت.

من الأمور التي تجعل من المنفى حقيقيا يكون فيما يسميه لوكاش بـ"التشريد الإبعادي للمثقف"؛* فالحلول بعد الارتحال من وطن إلى وطن ينطوي على قدر زائد من الإحراج والصبر على ما فقدت والحسد على ما وجدت، ذلك أن حالة الحسد هذه ومعايشة أقوام لم يختبروا يوما عذابات المنفى ليست قائمة إلى الحد الذي قد تبدو عليه لعموم الناس، فبإمكان المنفي أن يصير مبتدءا مما يتيح له أسلوب معيشة غير تقليدي، وقبل كل شيء مهنة مختلفة وغالبا ما تكون شاذة "[34].

ومن المتع الفريدة لمهنة المنفى، ينقل سعيد كيف استطاع المؤرخ الترينيدادي سي آر جايمس الذي ذهب إلى إنجلترا كلاعب كريكيت بين الحربين العالميتين ليجد نفسه في سيرته الذاتية ما وراء الحدود يؤرخ لدور الكريكيت في الاستعمار وهي علاقة اعتبرت وقتها شاذة لكن ملامحها أخذت في التجلي شيئا فشيئا وأصبح لهذا الربط أكثر من مبرر في السرد ما بعد الكولونيالي.

وآخر فضائل المنفى، أن يصير المثقف هامشيا عندما تغمره مكافآت التكيف والإمعة والركون، وأن يبتعد دوما عن السلطات الممركزة، فالهامشي ليس معدوم المسؤولية ولا مفتقرا للجدية كما قد يبدو من لا مبالاة دلالة الهامش ذلك أن التموقع في الهامش يتطلب من المثقف "أن يستجيب على نحو غير اعتيادي للمسافر لا للحاكم، للمؤقت والمحفوف بالمخاطر لا للمألوف، للابتكار والاختيار لا للوضع الراهن المكرس سلطويا، فالمثقف الذي تتقمصه حالة المنفى لا يستجيب لمنطق التمسك بالأعراف بل لاجراءة المغامرة ولتمثيل التغير وللمضي قدما، لا للركود والجمود "[35].

ولعل في منفى الألماني تيودور أدورنو المثال الأبرز الذي استلهم منه سعيد صورة المثقف في علاقته بالمنفى، فقد مثل أدورنو بالنسبة لسعيد ضمير المثقف المهني في منتصف القرن العشرين وكونه من أصول يهودية فقد ذاق المنفى القسري بعد صعود الحزب النازي إلى الحكم في ألمانيا، حيث انتقل إلى أكسفورد كطالب في الفلسفة ليعود إلى ألمانيا كأستاذ في جامعة فرانكفورت، لكنه نزح منها مرة أخرى إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تشكل الأخيرة بالنسبة إليه التجربة الأكثر حدة ومرارة، فهناك فقط استطاع أن يعيش المنفى بكل تجاعيده العاطفية والسردية.

في أمريكا لم يعد منفيا عن جغرافيا الوطن فحسب، بل تضاعف المنفى ليشمل رفضه لكل أشكال الحياة اليومية الأمريكية، بدءا بالثقافة الشعبية وموسيقى الجاز وأفلام السينما وحتى المنتجات الصناعية ومنظومة التعليم وأنماط العلاقات الاجتماعية ككل التي كانت محكومة بنظرة براغماتية صارمة للعلاقات والأشياء، كل ذلك هو الذي أنتج رائعته العظيمة –كما يصفها سعيد– الحد الأدنى للأخلاق (1953) والتي يعكس أسلوبها حالة من التشرد والشتات الأسلوبي، فلا هي بالسيرة الذاتية ولا هي بالتفكير الملي الرصين في موضوعات محددة ولا حتى عرضا منهجيا لنظرة مؤلفه الاعتبارية. إن أسلوب أدورنو كمنفي دائم "هو أسلوب متكلف وسحص إلى درجة الإفراط، إنه في المقام الأول مجزأ متقلب متقطع لا حبكة فيه ولا ينتهج تسلسلا محددا سلفا، وهو يمثل وعي المثقف وكأنه غير قادر على التحرر من القلق أينما كان، متيقظا باستمرار احتراسا من مغريات النجاح "[36].

وعموما، فليس المنفى هو تلك الصورة القاتمة والقلق الأسلوبي دائما كما يقرأ سعيد في نص أدورنو، هناك منفى يكافح باستمرار لإيجاد وطن بديل عن حالة التشرد الصعيدي التي يعيشها المثقف، وقد ذكرنا فيما سبق بعضا من تلك الإقامات والمقامات التي يمكن أن ينوجد فيها المثقف كمنفي.

لذلك لا يكتفي سعيد بالحديث عن المنفى بقدر ما ينقل معايشته له وهو الذي تشكل روح سيرته تجسيدا حيا للمثقف المنفي الذي لم يمنعه انتسابه الأكاديمي من ممارسة دوره كمثقف لا منتم لمؤسسة عمله ولا مهادنا للسلطة التي كان يفترض أن يكون بعضا من سيادتها، بل وذهب إلى أبعد من ذلك حين أشهر كتابه عن الاستشراق كوعي مقاوم لما هو سائد، بل وتحرره من كل انتماء سياسي وأيديولوجي ليس أقله خروجه من منظمة التحرير الفلسطينية بعد أن كان مناضلا فيها وأن يبقي على انتمائه العاطفي والميتافيزيقي في مقاطعة السلطة والإشهار للحقيقة.

***

ما الذي يفيده درس المثقف في خاتمة هذا البحث؟

إن المثقف عند سعيد شخص ملتزم وواع اجتماعيا، ليس خارج المجتمع كما يرى بندا، ولا داخل تخصصه كما هو المثقف التقليدي عند غرامشي، إنه بمعنى ما أقرب إلى المثقف العضوي اللامتماهي مع طبقته، أي إن نزوعه للحقيقة والإنسان لا يغطي على واجبه النقدي اتجاه طبقته والعمل على تنوير الجماهير وتوعية الحشود لا بالخطب الرنانة أو الحراك الشعبوي الأعمى وإنما بالعمل على تصحيح المسارات المجتمعية الخاطئة، وهذا يتطلب من المثقف الهاوي لا المحترف فك كل ارتباط تكسبي أو عاطفي بالسلطة والتمسك بمنهجه والإخلاص لمبادئه وضبط معايير الحقيقة والصدق والكذب ومقاومة كل أشكال التعصب والاستغلال والقهر السلطوي، فوظيفته العمومية كمرشد للمجتمع تقضي بضرورة الإقامة الدائمة داخل الحقل السياسي والاجتماعي وعلى تخوم السلطة بما يتيح له الدفاع عن حقوق المحرومين وإسماع صوت المنسيين وتمثيل المهمشين، لذلك فهو مطالب دوما بإحراجها وفضح ألاعيبها –أي السلطة_ على المستوى الفكري بالإشهار لحقيقة بديلة ليست تلك التي تعمل السلطة على تكريسها وإشاعتها عبر وسائل إعلامها ومؤسساتها المختلفة، وأما على المستوى العملي فإنه مطالب بنفي عدالة السلطة الزائفة والظرفية لصالح عدالة أكثر وفاء وتمثيلا لأعداء السلطة وضحاياها على السواء.

وهو إذ يفعل ذلك فإنه لا مناص مقيم بين وعدها ووعيدها، لذلك أحرى به كملهم لجمهوره أن يتنزل بين المنزلتين، فلا يسلك في الأمر سبيل الخيانة المحمول على حب الربح والبحث عن المناصب والسلوك الانتهازي والانتفاعية والتماس العذر للسلطة، بل ينبغي عليه الصبر على أذاها وألا يتقي في عمله غضبها وعقابها بالانزواء

والتثاقل عن ممارسة وظيفة النقد والاحتجاج فيما يخص قضايا أمته وشعبه كانوا أحوج إليه أم في غنى عنه، فوجوده يبقى ضروريا دائما حتى وإن كان يباشر علاقته من طرف واحد.

ولذلك اعتبر سعيد الانوجاد في المنفى هامشيا للإقامة داخل السلطة، فإذا كانت الأخيرة تحمل المثقف على صفات الخضوع والانتفاع والخيانة والتبرير، فإن المنفى يحيله من مقيم إلى مغترب وينقله من دعة الموجود إلى الحسرة على المفقود، ومن خيانة الذات إلى التصالح مع مبادئها، ومن التبرير للسلطة إلى فضح أساليبها والتشويش عليها. فضلا عن ذلك، فإن المنفى يخرج المثقف من شتى الحتميات والأطر التي تفرضها السلطة والمجتمع والعادات، بل والخروج من ضيق الهوية إلى هجنتها ومن أقنوم القومية إلى رحاب الإنسانية، لذلك اعتبر سعيد المنفى للمثقف بمثابة الامتياز الذي يعيد من عليه بناء علاقته بالسلطة والحقيقة والإنسان.

هوامش البحث:

1 محمد الشيخ، المثقف والسلطة: دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 1991، ص. 15 – 22.

2 – في سنة 1762م حكم على كالاس بالإعدام شنقا بتهمة قتل ابنه خوفا من تحول الأخير إلى الكاثوليكية لكن زوجته و أولاده اقنعوا فولتير بالدفاع عن كالاس لإثبات براءته و حصل ذلك سنة 1765م بعد الرسالة المشهورة " محاولة في التسامح" و أعلنت المحكمة البراءة لكالاس و تم تعويض أهله بسبب ذلك .

3 – **Albert Thibaudet**, **La république des professeurs**, **Paris**, **Grasset**, **1927** , **p 147**.

(*) – يتعلق الأمر بتعاريف ثلاثة مشهورة:

أ – تعريف غرامشي الذي يقول: " إن كل الناس مثقفين لكن ليس لهم كلهم أن يؤدوا وظيفة المثقف ". و على أساس من ذلك يتوزع المثقفون عنده إلى تقليديين يؤدون نفس الوظيفة جيلا بعد جيل شأن المعلمين و الإداريين و رجال الدين و مثقفين عضويين على ارتباط مباشر بطبقات أو بمؤسسات تجارية عملهم هو اكتساب المزيد من القوة و زيادة السيطرة . انظر **Antonio Gramsci** , **The prison nootbook**, **trans**. **Quintin Hoare and Get Frey** (**Nowell–smith**), **New York International publisher** ,**1971**, **p 9**.

ب – تعريف جوليان بندا الذي يقول إن المثقفين الحقيقيين " هم الذين لا يهدف نشاطهم أساسا إلى تحقيق أغراض عملية و كل الذين ينشدون السعادة في ممارسة فن ما أو علم ما أو في تأملات ميتافيزيقية أي باختصار في التحلي بمزايا غير مادية و من هنا يقولون بطريقة ما: مملكتي ليس من هذا العالم " . انظر: **Julien Benda**, **The treason of intellectuals**, **trans**. **Richard Aldington**, **London/Norton 1980**, **p 43**.

جـ – تعريف سارتر الذي يعرف المثقف بالقول إنه:" إنسان يتدخل و يدس أنفه فيما لا يعنيه " . انظر كتابه :

دفاعا عن المثقفين، ت. جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، 1979، ص. 11 .

4– ادوارد سعيد، خيانة المثقفين. النصوص الأخيرة، ت: أسعد الحسين، دار نينوى، دمشق، 2011، ص. 36– 37 .

5 – فيصل دراج، «صور المثقف عند ادوارد سعيد»، الكرمل ، ع38، شتاء 2004.

6 – ادوارد سعيد، صور المثقف ، محاضرات ريث، ت: غسان غصن، دار النهار، بيروت (د. ت)، ص. 80 – 81 .

7 – المصدر نفسه، ص. 84 .

8 – صور المثقف، ص. 85 – 86 .

9 – ادوارد سعيد، المثقف والسلطة،ت: محمد عناني،دار رؤية، القاهرة، 2006، ص34–35 .

10 – المثقف والسلطة، ص .220

11 – نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة ، ت :فاروق عبد القادر، عالم المعرفة، الكويت، 2001،ص. 154–155 .

12 – صور المثقف، إدوارد سعيد ، ص. 96 .

13 – نقلا عن: فيصل دراج، «صور المثقف عند ادوارد سعيد»، ص. 28 .

14 – ادوارد سعيد، صور المثقف، ص. 73 – 74 .

15 – المصدر نفسه، ص 88 .

16– فيصل دراج، «صور المثقف عند إدوارد سعيد»، ص. 29 .

17 – «معارضون جماهير دوائر انتخابية» ، ضمن كتاب: ثقافة ما بعد الحداثة، 1983، ص. 140 .

18 – ادوارد سعيد، صور المثقف، ص. 21 .

19 – ادوارد سعيد، خيانة المثقفين. النصوص الأخيرة، ص. 89 .

20 – ادوارد سعيد، صور المثقف، ص 94 .

21 – فيصل دراج، «صور المثقف عند إدوارد سعيد»، ص. 43 .

22 – ادوارد سعيد، صور المثقف، ص. 51 – 52 .

23 – ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ص. 62–63 .

24 – المصدر نفسه، ص. 68 .

25 – ادوارد سعيد، فرويد وغير الأوربيين، ت: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، 2004، ص. 77 .

26 – فخري صالح، دراسات وترجمات، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2009، ص. 72 .

27 – ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ص. 71 .

28 – ادوارد سعيد، صور المثقف، ص. 51 .

29 – ادوارد سعيد، الثقافة والمقاومة: حوار مع دافيد بارسميان، ت : علاء الدين أبو زينة ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007، ص. 143.

30 – ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ص. 84 .

31– ادوارد سعيد، تأملات حول المنفى، دار الآداب، بيروت، 1984، ص. 173 .

32 – ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ص. 100 –101 .

33– ادوارد سعيد، صور المثقف، ص. 68 .

34– المصدر نفسه، ص. 69 .

35– المصدر نفسه، ص. 70 .

36– المصدر نفسه، ص. 72 .

* – صبحي حديدي، «إدوارد سعيد، المنفى. قلق الانشقاق و النظرية المترحلة»، الكرمل، عدد 78، 2004 ص. 7– 9.

37 – ادوارد سعيد، صور المثقف، ص. 65.

محمد كعبش: مواليد 1983/08/13م بصالح باي ولاية سطيف ، متحصل على ليسانس أدب عربي جامعة فرحات عباس سطيف دفعة 2006م ،حاصل على ليسانس علوم إسلامية دفعة 2011م من جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة و ماجستير تخصص فكر إسلامي معاصر من ذات الجامعة دفعة 2014م عن أطروحة منهجية الجابري في قراءة التراث ،طالب دكتوراه سنة رابعة جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية تخصص عقيدة عن موضوع المعرفة و السلطة بين ميشال فوكو و إدوارد سعيد.